«الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش»

أسطورة جديدة

موريس ميلدُونْ

مقدمة

كتب موريس ميلدون فى مقدمة مسرحية «الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش» يقول إن هذه المسرحية تمس ظاهرةً اجتماعيةً ليست بغير الشائعة. وقد حلل الكاتب هذه الظاهرة الاجتماعية وأرجعها إلى عناصر أربعة، تتوفر فى الواقع، فى المجتمع الأيرلندى الذى تعالجه المسرحية، وفى غيره من المجتمعات. ويُستَشَفّ من مقدمة الكاتب أن هذه العناصر هى انتماء المجتمع إلى ماضٍ عريق مجيد مازالت له آثاره البعيدة فى معتقدات الناس وسلوكهم، فى إيمانهم بالأساطير القديمة وتمسكهم بطرائق الحياة التى ورثوها عن أجدادهم وقيم البطولة القديمة التى تَدَافَع عليها هؤلاء الأجداد، ثم يأتى بعد ذلك الماضى القريب الذى كانت تحيا فيه كثيرٌ من المجتمعات المتخلِّفة إذ كانت تنوء تحت وطأة الاستعمار والقهر وتضطرب بالكفاح ضد قوى الاضطهاد،بما يقتضيه هذا الكفاح من تضحيةٍ ومغامرةٍ بالنفس فى سبيل المبادئ العُليا ومصلحة الوطن، ثم يسير هذا المجتمع فى تطوره فإذا هو قد تخلّص من أغلال هذا الماضى القريب إلى حدٍ ما ، وانفسحت أمامه آفاق من الحرية قد تضيق وقد تتسع ولكنه لم تتح له الفرصة بعد لأن يُخلِص التفكير فى المستقبل يُخطِّط له ويدبِّر أموره، ويُعِدّ للآمال التى يعقدها عليه.

وهو وضع ينطبق بصفة عامة على المجتمع الأيرلنـدى المعاصر، كما ذكرنا، وعلى هذا القطاع الذى تتناوله المسرحية من ذلك المجتمع بصفة خاصة، فالأحداث هنا تدور فى جزيرة أيرلندية صغيرة منقطعة عن الأرض الكبيرة، لم يعد فيها إلا الشيوخ، أما من بقى فيها من الشباب فهم قدرحلوا بالفعل منذ زمن، أو هم على وشك الرحيل.

وأهل الجزيرة فى مجتمعهم ذاك الضيق المنعزل، يعيشون على تقطير الخمر المحظورة وتهريبها، ويأنفون من الزراعة وفلاحة الأرض، ولهم زادهم الروحى الذى نزل إليهم عَبْر الأجيال الطويلة القديمة، من إيمانهم بالأساطير العريقة.

هل لنا أن نتلمس، وراء هذه الأحداث الظاهرة، علاجًا لموضوع كبير هو التنافس أولاً بين الشباب والشيخوخة، وهو على مستوى آخر، ذلك التنافس نفسه بين مجتمع كهلٍ زراعىّ منعزل متخلّف وبين المدنية الفوارة بنشاط الشباب والأمل وسرعة التطور الصناعىّ، وهو أخيراً نفس التنافس على درجة أعمق، بين القديم، بخرافاته وأساطيره وآلهته وأبطاله وبين الحديث بتمجيده الإنسان وتقييم بطولاته على وضعها الإنسانىّ الصغير؟ يبدو أن المسرحية تحتمل هذا الاستبصار على مستوياته الثلاثة، وقد تحتمل أكثر منه أيضًا؛ فإن مؤلفها يسميها «أسطورة جديدة» والأسطورة، كما ألفنا، أرض عميقة الطبقات خصبة التربة.

نالت هذه المسرحية جائزة الإذاعة الأيرلندية، وأذيعت منها للمرة الأولى فى عام ١٩٤٨، فهى قد كُتبت أساسًا للإذاعة. وكان مؤلفها

موريس ميلدون عندئذ فى العشـــرين من عمـــره، فقد ولـــد فى دبلن فى ١٩٢٨، وتلقى ثقافته فى كلية سانت مارى،فى داندولك بأيرلنده. عَمَل فى الحكومة الأيرلندية. كتب عدة مسرحيات قصيرة وطويلة أذيعت ومثلت فى الإذاعة الأيرلندية وفى مسرح آبيى بدبلن.

* * *

ولنا مرة أخرى أن نتساءل أنحن بحاجة حقًا إلى أساطير جديدة؟ فإن هذه التسمية خليقة بلاشك أن تثير هذا السؤال.

إننا نجد فى هذه المسرحية آلهة الميثولوجيا الأيرلندية القديمة، «داجدا» كبير الآلهة، وهو نفسه الذى نعرفه عند اليونان باسم زيوس وعند الرومان باسم چوپيتر، ولعله هو أيضًا رع عند المصريين القدامى، كما نجد فيها زوجته «بوان»، وقصة حبهما القديمة المتجـددة أيضًا، وإله البحر «مان – آن نون»، والحدَّاد الإلهى «جاب – نيو» وغيرهم من أبطال وسُكان الميثولوجيا الذين قد تتغاير أسماؤهم بين شعب وآخر، وإن بقيت خصائصهم وحكايات حياتهم متشابهة أو متطابقة لا يكاد يلحقها التغيير.

الجديد فى هذه الأسطورة أن الناس، الناس العاديين الصغار، يلعبون أدوار الآلهة، دون قرقعةٍ ولا صخب، بل كأنهم يقومون بالدور بالرغم منهم، دون أن يعلموا أنهم يسيرون على آثار الآلهة القدامى، وأمجادهم الآن تكاد تكون رثَّة المظهر مبتذلة وإن كانت فيها عظمة المجد العريق وقداسته. إن بطـــل هذه المسرحية فتىً حالم شاعرى متردد،

لكن القدر يلعب معه لعبةً إلهية. وبطلتها فتاة طموح عصرية مِقدام، تتوق إلى اللحاق بالدنيا الحديثة العامرة بألوان الحياة وزحمة المغامرة، والقَدَر أيضًا يردّها إلى الأصول العميقة للشِعْر والحب والتضحية، والناس هنا يرتبطون بنُذُرٍ مقدسة، تحكم حياتهم وموتهم، وفي تحديهم لهذه النُذُر يكمن الخطر القديم واللّعْنة القديمة التي طالما كانت ردّ القدر على تحدي البشر لإرادته. في ذلك كله عناصر الأساطير ولكنها تكتسب دلالةً حديثةً قريبة الصلة بالمشاكل الاجتماعية. الظاهرة الاجتماعية هنا شيء جليل الأبعاد فيه ضخامة القوى العريقة وفيه أيضًا مظهر الأحداث اليومية السوقية. ومن هنا تثرى حياتنا العادية وتعمُق. ولعل في ذلك وحده ما يبرر العمل الفني، وفيه كذلك ما يبرر تسميته هنا بالأسطورة الجديدة.

على أن الأسلوب الشاعري، واللغة التي يعرب فيها أشخاص الأبطال عن ذات أنفسهم والجو المتوتر المشحون بالإيمان المطلق بالقدر، وسيطرة القوى الغيبية على مناخ المسرحية، كلها أيضًا من عناصر الأساطير. الجديد، هنا، إنما يعود إلى عناصر الحياة المعاصرة والمسرح الحديث.

«الشخصيات»

ميهول ماك تارف
چول ماك تارف
سايف
فيرجوس أوجرين
المعلم
بريدچين لوا
داهى ماكرو
نساء أخريات

المشهد الأول

(مقبرة تكاثفت فيها الأعشاب والنباتات. ورجلان يميلان إلى الشيخوخة، يسويان قبراً حديث الردم. أطولهما وأشدهما صرامةً ووقاراً فى ملبسه، يُعرف باسم المعلّم، والآخر هو فيرجوس أو جرين. أنفاسهما ثقيلة مبهورة ...) .

المعلّم : يبدو أنه حسن التسوية الآن، فيما أظن. . . ؟

فيرجوس : نعم يامعلم. . إنه قبر حسن. . .

المعلم : لم يكن ردمه عملاً هيّنًا. . .

فيرجوس : لا يامعلّم، لم يكن هيّنًا. . إن السن تتقدم بنا كلينا. .

المعلم : آه، ولكننا مازلنا أقوياء العود. . .

فيرجوس : نستطيع أن نقول إننا مازلنا أقوياء العود، حتى الآن. ولكن دورنا قد يأتى غداً أو بعد غد بمشيئة الله - وغراب الجيفة طيّارٌ مفرودُ الجناح. .

المعلم : عندما نموت فذلك عندما يشاء الله. . .

فيرجوس : ترى أيّنا يامعلم سوف يشهد دفن الآخر. . .

المعلم : تلك فكرة أخرى، أيضًا. ولعلنا سوف نرقد فى قبر واحد بعينه.

فيرجوس : كلانا من سن واحدة يامعلّم. وفيما عدا امرأتينا - وهما أصغر منا بسنة واحدة- فنحن أصغر الشيوخ سنًا ممن تبقّوا على الجزيرة. ألسنا الوحيدين اللذين يصلحان لحفر القبور، أو لأى نوعٍ من العمل؟ هَبْ أننا كلينا قد دُعينا إلى طريق واحد على الفور فمن يحفرها، وما عاد كلانا هنا؟

المعلم : داهى ماكو، ربما. . .

فيرجوس : ماكو الداهية، لن يدفننى، ولو كانت لديه المُنّة والقوة، وليس هو بشىءٍ منها. سوف أعيش بعد ماكو، ولو قتلنى ذلك قتلاً. أى نعم،وسوف أشهد دفنته أيضًا . .

المعلم : لاَ يُرعْك الأمر يافيرجوس،الداهية لن يهيل عليك التراب، أيًا كان الذى سيقوم بذلك. . .

فيرجوس : وكيف كان لك هذا اليقين؟

فيرجوس : آه إنه رقيق، كانت سلالة ماك تارف كلها رقيقة. كان فينبار أجودهم بِنْية. كان لديه شىءٌ من قامة الرجال وسَمْتِهم. والروح أيضًا. . كانت لديه الروح. .

المعلم : نعم، لاشك فى ذلك على الإطلاق. . .

فيرجوس : سمعت بالقصص التى تقال يامعلم؟ تحت أخشاب أرضية البيت. . .

المعلم : نعم سمعتها فى الحقّ.

فيرجوس : لو أنه عاش أكثر قليلاً فحسب، لكان قد مات فى سبيل وطنه أو مبادئه، مثل الأبطال من قبل. منذ أسبوع كان بالوسع أن تقول إنه سوف يعيش بعدنا جميعًا. إذا لم نحسب حساب القَدَر الذى يأتى بالموت إلى الأبطال. . .

المعلم : بل كنت لأقسم على ذلك. .

فيرجوس : ومع ذلك فها نحن نضع اللمسات الأخيرة فى قبره. الحياة شيءٌ غريب إذا تأملتها.

المعلم : شيء غريب يافيرجوس. . . ولكن أظننا نستطيع، ربما، أن نضع شاهد القبر الصغير الآن. . .

فيرجوس : أين هو؟

المعلم : خلف شجرة السرو الثانية عبر الطريق. . .

فيرجوس : سوف آتى به (يتحرك نحوه) أين هو يامعلم. . إلى اليسار أو إلى اليمين؟

المعلم : إلى اليسار. .

فيرجوس : العشب طوله ميل، وهناك عقدة متشابكة من الأعشاب هنا تُوقع فى حبائلها سربًا من سمك القرش. . .

المعلم : إلى يسار الشجرة: قائمًا إلى الرأس الحجرى الضخم. .

فيرجوس : ها هو ذا لدّى. هاهوذا لدىّ (عائدًا) كان فى حفرةٍ بالأرض حيث كانت الأرض قد انخسفت. أتعرف يامعلم مَن صاحب هذا الرأس الحجرىّ؟

المعلم : لا، فى الحقيقة. من صاحبه؟

فيرجوس : داجدا[1] أوموركا. كان آخر ملوك الجزيرة من سلالة داجدا المباشرة. كان أجداد أجدادى السالفين يتحدثون عن أوموركا. ذلك فى العهد الذى كانت تعيش فيه ثلاثون عائلة فى الجزيرة. . . .

المعلم : العصر الذهبى. .

أليس قد نذر نذرًا وارتبط بعهودٍ مقدسة ألاّ يقوم بعملٍ أبدًا؟

فيرجوس : لن يرى فى دفننا عملاً. . . إننى أعرف الداهية. بل سيراه ترويحًا عن النفس. الآثم العجوز الضاوى، هذا الجذر الخاوى، هذا الوغد المشّاء بالفضائح والنميم.

المعلم : يافيرجوس يارجل، أنت تنال خادم «داجدا» بقوارص الكلمات.

فيرجوس : عندما أفكر فيه، وهويحكم الجزيرة، يحتلّ مكان «داجدا» الخالد، لولا المكان المقدس، لولا المكان المبارك الذى نحن فيه، لأفضيت ببعض ما أعرف عن الداهية.

المعلم : المقبرة مكان أنسب ما يكون لأن يوحَى إلى المرء بأفكارٍ تدعو إلى العبرة والموعظة. .

(١) داجدا : كبير الآلهة فى الأساطير الأيرلندية القديمة .

فيرجوس : أى نعم يامعلم، إنها لكذلك. إنهـا تلقى عليك سحراً.
تذكّرك بأنّ الحياة قصيرة.

المعـلـم : وبأن كلّ مرارةٍ فى النفس تافهـة ركيكة. كلنا نلقى ذات
المصير فى النهاية..

فيرجوس : أى نعم، إلا أن البـعض أجدر به من البـعض الآخر..
وماكـو الداهية أحـد هؤلاء.. يامعلم، لو أنني وقعت
تحت ظلّ جنـاح الغـراب، فـأملى أن تـكون أنت الذى
تدفننى...

المعـلـم : ليس لك أن تفكر على هذا النحو يافيرجوس...

فيرجوس : ليست بى نيـةُ شرٍ يامعلم، ولكنى آمل أن يشهـد كلانا
دفن الآخرين جمـيعًا، بذلك سوف يتـاح لهم أن يناموا
نومةً طيبة مريحةً فى قبورٍ حسنةَ.

المعـلـم : ذلك أن تتمنى قسطًا كبيراً من العمل يقع علينا نحن الاثنين...

فيرجوس : دعنا نرى هذا: هناك جول ماك تارف، وزوجته سايف.
هناك الداهية وزوجته مورى آن[1].
ثم هناك زوجـتـانـا الاثنتـان: امـرأتى لاف آركـان[2]،
وامرأتك إيفا[3]. ستة يامعلم.

(١) تُنطق Manr-hee-on .
(٢) تُنطق Lov-ark-on .
(٣) تُنطق Ee-foh .

ستّ جنازات، بين الواحدة والأخرى مسافة بوسعنا أن نقوم بها على أيسر نحو. وعندما يكونون قد ذهبوا إلى طريق «داجدا» ونكون قد ذهبنا، لن يتبقى إلا واحدة...

المعلم : واحدة...

فيرجوس : ابنتى بالتأكيد. بريدجين لوا قد بلغت الثامنة عشرة لتوّها. من المنتظر إذن أن تبقى بعدنا جميعًا على هذه الجزيرة.

المعلم : واحدة أنت تقول؟ وماذا عن ميهول ماك تارف الشاب؟

فيرجوس : ميهول ماك تارف... نسيتُه.

المعلم : ألا ننساه جميعًا، فى وقت أو آخر؟

فيرجوس : كان ذلك هو العصر الذهبى، يامعلّم. كان عهدًا مجيدًا، لن نرى له نظيرًا مرةً أخرى.

المعلم : تلك كلمة حقّ تُحسب لك يافيرجوس.

فيرجوس : تلك كانت أيام الأعاجيب والفِعال العظيمة، موضوعةً كأعمدة الذهب والفضة بين الصَباح والليل.

المعلم : عهد مجيد يافيرجوس..

فيرجوس : عندما طوّح داجدا بأكتاف الجبل الأربعة الضِخام من كوريج فى الجنوب إلى كروكان فى الشمال، وفعل ذلك فى أثناء عمل صبيحةٍ واحدة. وفى مرةٍ أخرى، كان الماء قد شحّ، أطفأ غُلّة الأرض، وجَرَفَ حفرةً فى

الأرض بيده العارية. هذا مكان البحيرة الصغيرة الآن. .

المعلم : عهد مجيد يافيرجوس. .

فيرجوس : (وقد حَمِي باستلهام عظمة الموضوع) كانت هناك حكاية تحكَى، أنه فى سبيل حبّه لبوان(١) وقد صارت زوجته فيما بعد. . . غطى بقطرات الثلج كلّ بوصةٍ فى الجزيرة، فى فلك ليلة واحدةٍ مُفرَدة. كلها فى ليلةٍ واحدة وفى منتصف شهر يونيه.

المعلم : عهد مجيد فى الحقيقة. . .

فيرجوس : أبيض كالجير كان بيت «داجدا». الذهب فى الجدران الداخلية وفى الأثاث: ثيابه من الخضرة البحرية وصفرة الزعفران، والأحمر البنفسجى: منصة المدفأة من الفضة والمدفأة من النحاس والأرض مغطاة بالبرونز. وجواهر - كلٌ منها سجن يحبس لهب «جابنيو»(٢) المقدّس فى داخله. وذلك كله مسقوف بأجنحة الطيورالزرقاء والصفراء. .

المعلم : عهد مجيد. . .

فيرجوس : وغابةٌ هائلةٌ ممتدةٌ بين كوريج وكروكان من أشجار اللوريس، والدردار، والزان،والتامول والصنوبر.

(١) بوان : زوجة داجدا .
(٢) جانبيو : الحدّاد الإلهى فى الأساطير الأيرلندية .

وشجـرة سنديان كانت أطول شـجرة فى العـالم الغربىّ كلّه. كـانت بساتين داجـدا ممتلئةً بزَبَد الأزهار السـاكن الثابت، والأغصان الـرقيقة الهيفاء فى الوقـت نفسه، قد تعلّقت بها عناقيـد الثمار الناضجة المـليئـة. أعجوبةٌ من الأعاجيب...

المـعـلـم : عهد مجيد يافيرجوس...

فيرجوس : واليـاسـمين، والخزامَى، وزنـبق الوادى فى كلّ مكان. والنحل يغنـى فى الوهاد السـاجـيـة الهـادئة. والتـوت الأحمـر كالسحب الحـريرية معلّق كالـشرائط بين الفَنَن والفنن. والتـوت البنفـسجىّ فى غلالةٍ مـن ضبـابات «مانّانون[1]» السحرية. والتـوت الأسودِ يفوح منه عطرٌ كـأنه من التـوابل النـادرة الآتيـة من العـالم الشـرقى. والغزلان والظبـاء على التلال الشقراء والثـيران والأبقار ناعمة الجنوب حـريرية الجلود. وطيور الحجل والشنقب والقطا والنسـور والغـربان والصـقـور والبلشـون والوزّ والبجع وطيـور الدج والشحرور والـسنجاب. والقندس والأرنب البـرى والثعلب. غنـائم الحرب التى اسـتبـاها «داجدا» فى العصر الذهبى للعالم.

المـعـلـم : عهد مجيد يافيرجوس. لن نـرى له نظيراً مرةً أخرى...

(١) مانْ آنون : إله البحر ..

فيرجوس : كيف أضع هذا اللوح يامعلم؟ ممدداً راقداً على أكمة التراب أم قائمًا منتصبًا؟

المعلم : قائمًا منتصبًا. رمزًا يافيرجوس، طالما بقيت سيقان النباتات والأشجار قائمة من خلال الشمس والريح والأمطار..

فيرجوس : خط جميل ذلك الذى كتبتَ به يامعلم..

المعلم : وددت لو كان أجود خطًا، لكن أصابعى قد صارت عصيّة متصلّبة الآن، فى الأيام الأخيرة..

فيرجوس : فى الكتابة الجديدة مدعاةٌ كبيرةُ للحزن، بيضاء بالجير المطفأ، ولامعة سوداء فى سواد الخنافس فى الكلمات المكتوبة..

المعلم : باترة كالذكريات تقطع. مرهفة الحدة، فى الذهن...

فيرجوس : هاهو ذا اللوح الآن (يضع اللوح فى مكانه) كيف يبدو شكله..؟

المعلم : يبدو ثابتًا على قدميه، ثابت الجنان، يافيرجوس. ليس لجول ولا لسايف أن يشينهما قبر ابنهما الأكبر...

فيرجوس : كانت ضربةً لهما، كبيرةً مريرةً...

المعلم : وكيف لا تكون؟ كان فتى أروع، فينبار، اختطفه الموت فى الفجر المشرق من أيام رجولته..

فيرجوس : عارٌ كبير للأب والأم...

المعلم : عارٌ أنت تقول؟

فيرجوس : عارٌ يامعلّم. لستَ من أبناء هذه الأرض يامعلم، وإلا كنت قد عرفت ما أعنى.

المعلم : ولكن أى عارٍ يافيرجوس يارجل فى أن يموت الفتى المنكود بعد إصابته بالبرد؟

فيرجوس : ليس كذلك يموت الرجال فى هذه الجزيرة يامعلم. كان الولد الأكبر معقد الفخار العظيم عند آل ماك تارف، وكان جول، والأم، يستشرفان لابنهما المستقبل العظيم. ولم لا؟ كان النَذْر الذى ارتبط به على قالب نذر الأبطال. سمعت هذا النَذْر يامعلم... ؟

المعلم : سمعته يافيرجوس، ولكنى لم ألقِ إليه كبير بال...

فيرجوس : بالطبع يامعلّم، ليس عندك الإيمان الصافى البحت، كما هو عند سائرنا، وقد ولدنا ونشأنا على الجزيرة. لقد نُذِر لفينيار نذْر بطل، عندما جاء إلى العالم...

المعلم : كان مرتبطًا بميثاق ألاّ يطارد ثلاثة أرانب برية على تلّ.. أحدها أبيض، والثانى أسود والثالث أحمر....

فيرجوس : (بغموض وقتامة) كان يصطاد الأرانب على تل كروكان فأصيب بالحمى التى قضت عليه..
فكر فى هذا القدر القاسى. طارد الأرانب بالرغم من النبوءة.

المعلم : أتظن أنه رأى الأرانب؟

فيرجوس : لقد رآها بالفعل يامعلم.

المعلم : هل قال ذلك؟

فيرجوس : لم يقل... ولكنه رآها...

المعلم : من أين لك كل هذا اليقين؟

فيرجوس : لقد مات. عندما يكسر رجل نذره المقدّس، فإنه يموت، والموت على هذا النحو عارٌ مرير، وذلك بعد الآمال الكبار السامقة التى كانوا يعقدونها عليه، والأسلحة التى يشاع أنها تحت الأرضية. لن يحتمل جول ولاسايف الحياة أبدًا بعد ذلك.

المعلم : مازال لديهما ميهول، على أى حال.

فيرجوس : هه، ميهول.. **(يتفحص الكتابة على اللوح الذى أقيم حديثًا ويأخذ فى قراءتها بشىء من المشقة)** الكتابة على شاهد القبر: «فينبار ماك تارفٍ.. وُلِدَ فى تاريخٍ ما، ومات فى تاريخٍ آخر.. وقد بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة..» ننحدر الآن. نهبط التلّ يامعلم؟

المعلم : صيامى الطويل عن الشراب قد أحرقنى من الداخل. ألديكَ صبابةُ من شراب فى هذه القارورة الصغيرة يافيرجوس؟

فيرجوس : لدى صبابةٌ منه يامعلّم. أفضل ما كان عندى من الخمر. تذوّق جرعةً منه (يعطى المعلم زجاجةً صغيرةً).

المعلم : (يسعل قليلاً) آه.. شراب طيّب، شراب عظيم يافيرجوس...

فيرجوس : نكهته طيبة. لقد جاء من الخمر القديمة أيضًا. لاشىء يرقى إلى مصافّ الأشياء القديمة..

المعلم : لا شىء يافيرجوس...

فيرجوس : (بلباقة) والآن يامعلم. عندما تسمح.. بإرجاع القارورة..

المعلم : القارورة؟ أليس هذا عجيبًا يافيرجوس. .أن أضعها فى جيبى الخلفىّ. ليس هذا مما يليق، لا، ليس مما يليق أبدًا...

فيرجوس : شكرًا يامعلم، قد يحدث لأى شخص أن يضع الشىء فى غير موضعه.

المعلم : حقٌّ يافيرجوس... هُومُر يومىء بالموافقة على أنه حق..

فيرجوس : هُومر سابينس يامعلّم. الإنسان عاقل.

المعلم : هُومو يافيرجوس هومو - الإنسان.

فيرجوس : نعم هومو بالتأكيد...

المعلم : ولكن الخطأ الطفيف لاينال من صحة المبدأ... مستعدٌ الآن يافيرجوس...؟

فيرجوس : مستعدٌ يامعلم. سنترك الفتى المنكود ينام نومته الأخيرة هنا حيث دُفن الأبطال حواليه من كل جانب..
وهو، يرحمه الله، لا أكثرمن مجرد إنسانٍ فانٍ ضئيل.

المشهد الثانى

(جزءٌ من داخل كوخ.. إلى اليسار مدفأة وإلى اليمين باب. يركع على الأرض شيخٌ ضاوٍ ذابل أشعث الهندام يتحسس بين يديه شيئًا صغيراً فى إعزاز، كان قد أخرجه من تحت أخشاب الأرضية. يُسمع صوتٌ من بعيد؛ فينتصب العجوز وينهض بسرعة، ويندفع فى هرولةٍ ليجلس على مقعد..)

چــول : (بصوت المشفق على نفسه الرائى لحاله) من هذا؟ من هناك؟ هل هذا أنتَ ياميهول؟

سـايف : (من بعيد) لا. لست ميهول.

چــول : آه، هذه أنت. هل الباب الخارجى مفتوح؟ هناك ريح قارصة تُثلج نخاع ظهرى.

سـايف : (وقد اقتربت. امرأةٌ جافةُ الصوت شديدةُ المرارة) الباب مغلق. أنت واهم...

چــول : (فى شكاة) بل أقول لك إننى أحسها.. أحسها. سيقتلنى البرد كما.. (يتوقف)

سـايف : (فى حدة) كما قتل مَنْ؟

چــــول : كما قتل.. لا أحد..

ســـايف : كما قَتَل فينبار. ابنك..

چــــول : وابنكِ أنتِ أيضًا.. لايغيب هذا عن ذهنك. كان فينبار ابنك كما كان ابنى..

ســـايف : ابنك أكثر من ابنى، حُكْمًا على ماحدث له..

چــــول : الضعف جاء من جانبك..

ســـايف : هه، هذا كلامك.. انظر إلى حالك..

چــــول : (فى تردّد مهتز) سلالةَ أبطال كانت سلالة آل ماك تارف. ذرية داجدا... أبطال كلهم.

ســـايف : أبطال.. مثلك ومثل فينبار. وميهول. يرحمنا الله.

چــــول : أبطال كلهم..

ســـايف : آه. لا تضـايقنى..لماذا دُفع بالكـرسى إلى الخلف على هذا النحو؟

چــــول : لا أدرى (بمكر) ربما كان ميهول قد دفعه إلى الخلف..

ســـايف : لم يعد مـيهول للبيت منذ أن رأيت الكرسـى لآخر مرة فى موضعه الصحيح..

چــــول : (مهوِّشًا محاولاً التخلص من المأزق بالضجة) طيب.. طيب.. كيف يتسنى لى أن أعرف مَنْ نقله من مكانه؟

ســـايف : هذا اللوح فى أرضية الغرفـة هنا. رُفِع من موضعه. هذا ما سمعته عندما كنت أدخل.. كنت تعبث بتلك القنابل

اليدوية مرةً أخرى. تلك القنابل التى كـان فينبار يحتفظ بها (ترفع لوح الأرضية) هاهى ذى فى المكان الذى أعده لها، كـأنها مجـموعة من البـيض فى عشٍّ للطيور. . . ماهذا؟ اثنتان فقط؟ أين الثالثة؟

چـــول : (فى نبرة المتلّبس بالإثم) ماذا؟ آه. . أنا. .

ســايف : (فى نبرةِ من يثب على الفريسة) هل أخذتها؟

چـــول : الحقيقة. بالتأكيد، أنا.

ســايف : أين هى؟ أين هى. . .؟

چـــول : أنا. . أنا وضعتها هنا. كنت أنظر إليهـا فقط. أتحسسها (مدافعًـا عن نفسه) إن لى الحق فى ذلك، أليس كذلك؟ لى الحق. . .

ســايف : (بازدراء) دعك من التبـاكى. هذا كلّ ما كنت أريد أن أعرفه. خطر لى أنّ ميهول ربما كان قد أخذها. . .

چـــول : (فى شكاة) ميهـول لا يفهمها. كل ما يعـرفه، إن كان يعرف شـيئًا على الإطلاق، أنها هناك، كـأنما يهتم بذلك أدنى اهتـمام! ليس لديه أثارةٌ من روح آل مـاك تارف. أمّا فينبار وعلى الرغم من كل سوءٍ فيه فى نهاية الأمر، فقد كانت فيـه جوانب طيبة. كانت لديه قطرات من دم آل مـاك تارف وهم الذين كـانوا أبطالاً منذ أيام داجـدا العظيم. . .

سـايف : لو أننى سمـعت كلمة واحدة عن شهـرة آل ماك-تارف لأذوقنك حد لسانى عن حقيقة حكاية آل ماك تارف. . .

چـــول : (متمـتمًا بنبرة التـمرد المكتوم) أبطالٌ كلهم. رجالٌ ضَوَارٍ متوحشون عندما تثور ثائرتهم.

سـايف : (بحدة) ماذا تقول؟

چـــول : آه دعينى وشأنى. تعذبيننى وأنا فى حالٍ لا تسمح بذلك. .

سـايف : حان الوقت لتطهير البيت من هذه القنابل. .

چـــول : تطهـير البيت مـنها؟ (وصوته ينـكسر) كل مالدىّ من ذكراه.

سـايف : (فى غير شفقة) الأفضل أن تَنسى. .

چـــول : كانت فى دمه. خصال آل ماك تارف. لو أنه عاش لكان له شأنٌ أى شـأن، شأن عظيم، ولقام بأفعـــال كـبار. . لعله كان سيفتدى بلده بحياته شأن الأبطال القدامى. .

سـايف : فات الأوان لتقدير قيمته الآن. إنه أيها الشيخ. .

چـــول : ابنٌ كان يمكن أن أفخر به.

سـايف : هذه الأشياء يجب أن تُنَحَّى عن متناول ميهول.

چـــول : ولمه؟ لعله لايعرف - إنه لايعرف بوجودها. .

سـايف : إذا لم يكن يعرف فليس ذلك من جريرتك، وأنت تغوص وراءها وتقلّبها دائمًا. . .

چـــول : ربما.. ربما في يومٍ ما.. في يوم ما، قد يجد ميهول أنَّ لها جدوى. ربما تظهر عنده الشرارة..

ســـايف : ميهول هو الرجل الذى صنعه الله.. لن يصبح أبدًا شيئًا آخر..

چـــول : كان نَذْرًا هزيلاً ذلك الذى كان من نصيبه عندما جاء إلى العالم. ومع ذلك وبالرغم من كل شيء...

ســـايف : (بمرارة) ألاّ يقدِّم خاتمًا لامرأةٍ قط وألا يـخفى خداعًا قط – هذا هو الميـثـاق الذى ارتبط به. ليس هذا بميـثـاق بطل (تخرج).

چـــول : آه، يا إلهى اشـفِقْ علىّ. يا إلهى اشـفِقْ علىّ... وأنا شيخ، أن أُترك على هذا النحـو فى نهاية أيامى. وليس لى ولد يرفع اسم مـاك تارف إلى المجـد. ليس لى ولد يظهر للعالم قيمة أبيه وشجاعته (يتباكى بشكل يُرثَى له) يا إلهى اشفِقْ علىّ. يا إلهى اشفِقْ علىّ.

المشهد الثالث

(ربوةٌ عالية موحشة فى الجزيرة. كان ثمَّ فتى وفتاة قد خرجا من طريق يصعد الهضبة وراحا يتجولان على الربوة. الفتاة هى بريدچين لُوَا، والفتى هو ميهول ماك تارف).

بريدچين : ليس هذا صحيحًا ياميهول ماك تارفِ، إننى لم أبكِ.

ميهول : (بصوت حالمٍ شجىِّ الإيقاع) لم تبكِ يا بريدچين لُوا؟ إننى بكيتُ، بكيت. . . ظننت أنكِ أيضًا كنت تبكين.

بريدچين : لماذا أبكى؟

ميهول : ألم تكونى ستتزوجينه؟

بريدچين : صحيحٌ هذا؟ لم أعرف بذلك قط.

ميهول : كانوا يقولون إن فينبار هو الوحيد الجدير بك.

بريدچين : هيه، هذه وقاحةٌ وتطفُّلٌ منهم.

ميهول : ألم يكن هو الوحيد الجدير بكِ يا بريدچين لوا؟

بريدچين : الجدير بى هو الذى أميل إليه.

ميهول : ألم تكونى تحبين فِينبار؟

بريدچين : لم أفكِّر فى ذلك قط.

ميهول : كانت لدى فينبار خصال رجل. أتساءل ماهى هذه الخصال؟ (دون ضغينة) لست أملكها. هذا غريب، أليس كذلك؟ كان فينبار يملك هذه الخصال وأنا لا أملكها.

بريدچين : مات بشكل هزيل بائس.

ميهول : (بحياء وخجل) أفترضُ أن ذلك لم يكن بيده يابريدچين لوا. ومع ذلك فقد كان الأمر غريبًا منه.

بريدچين : ماذا تعنى «غريب»؟

ميهول : أن يخرج إلى التلّ كما فعل. لقد كانوا يحذّرونه من ذلك دائمًا وطول الوقت، خوفًا من النبوءة.

بريدچين : ذهب إلى التلّ بسببى.

ميهول : بسببك؟

بريدچين : (في متعة بذكرى ما أحرزته من نصر) تحديتُه.

ميهول : (مروعًا) هل تحدّيته حقًا يا بريدچين لوا؟

بريدچين : نعم، تحديته. كان يتكلم عن الأعمال العظيمة التى سيقوم بها من أجلى. فتحديته أن يذهب إلى التلّ.

ميهول : (فى مرارة كَدرة) كانت ميتةً هزيلةً بائسة، بعد الأعمال العظيمة التى كان عليه أن يقوم بها.
(بعد صمت قصير) كنت أحب فينبار.

بريدچين : (على مضض) كانت كتفاه رائعتين.

ميهول : سأفضى إليك بسر يا بريدچين لوا. لست أستطيع أن أتذكر فينبار على الاطلاق. لست أستطيع أن أتذكر شكل

وجهه. لست أستطيـــع . . حاولت بأقصى جهـــدى.
لو أننى اســتطعت أن أراه مــرةً أخرى، فـأظن أننى قــد أتذكّره.

بريدچين : (فى غير مبالاة) أنا أستطيع أن أتذكّر.

مـيهـول : تستطيعين؟ أنا أستطيع أن أتذكّـر العهد الذى كنا ننام فيه معًا فى سرير صغيرٍ واحد. كان جسده دافئًا. تُرى كيف يكون ملمس الناس عندما يكونون موتَى.

بريدچين : لا تحدثنى عن ذلك.

مـيهـول : لو أننى استطعت فقط أن أرى وجهه مرةً ثانية.

بريدچين : (غَضْبَى) لا تحدّثنى عنه.

مـيهـول : (لحظة صمت. ثم خَجِلا) بريدچين لوا، عمَّ أتكلّم إذن؟ لمـاذا تغمضين عينيك بهذا الشكل؟

بريدچين : (حالمة) حتى أسمع الصوت والكلمات بشكلٍ أفضل.

مـيهـول : أىّ صوت؟ لا أسمع صوتًا؟

بريدچين : (محنَقة مغيظة) ميهول ماك تارف، أنت تثير الحليم.

مـيهـول : (نادمًا) آسف يابريدچين لوا.

بريدچين : (فى لين مفاجىء) إنه صوت داجدا. اسمعْ . .

مـيهـول : لا أسمع إلا البحر.

بريدچين : (فى نشوة) همسات داجدا.

مـيهـول : كيف يمكن ذلك؟ لقد مات داجدا منذ سنوات وسنوات.

بريدچين : (عـائدةً إلـى الأرض بحـدة) هذا كـذب. إنه لا يموت أبدًا. مـا من أحـدٍ له عظمة يمـوت موتًا نهـائيًـا. إنهم يعودون ثانية.

مـيهـول : (متشبثًا بأمل) إذن فهل يمكن أنّ فينبار. . . ؟

بريدچين : أولئك الذين عـاشـوا فى العظمـة يعـودون مرة أخـرى (بازدراء) أولئك الذين يموتون مـيتةً هزيلة بائسـةً مَوْتَى إلى الأبد.

مـيهـول : (آسفًا) فلن أراه أبدًا مرةً ثانية ولن أحس دفئه بجانبى أبدًا-

(تقول بريدچين لوا بفخرٍ واعتزاز)

بريدچين : لقد عدتُ أنا ثانيةً.

مـيهـول : (وقد هاله الأمر كـما ينبغى) عدتِ ثانية؟ هل كنتِ هنا من قبل؟

بريدچين : نعم. فى بعض الأحيان أحلم بذلك.

مـيهـول : وكيف كان الأمر عندمـا كنتِ هنا من قبل؟ على ما هو عليه الآن؟.

بريدچين : فى ذلك العـهـد كنت أنا بوانّ، المـلكة التى اختـارها داجدا لنفسه.

مـيهـول : (خافت الصوت، فى عجب ودهشة) من أجلك ملأ شقوق الأرض، فى منتصف شهر يونيو، بكل قطرات الثلج.

بريدچين : (راضيةً عن نفسها) نعم، أتنكر ذلك؟

ميهول : كيف كان الأمر يا بريدچين لوا؟ أكانت الشمس تشرق كما تشرق الآن، وكان باستطاعتك أن ترى البحر الأزرق، كماترينه الآن، يتسلل إلى سور رصيف الميناء والطريق يتلوى منحدراً على كروكان إلى شارع القرية..؟

بريدچين : (حالمةً) الشمس كانت تكتسى بالذهب والحمرة. وداجدا كان الشمس. وفى أسفل، كانت عَبَاءة داجدا هى عباءة «الأوهلاف» رجل العلم، فى البحر والسماء، الطريق المنحدر كان لونه الخضرة حينًا، والذهب حينًا، والحَمْرةحينًا. وبعد ذلك كان لونه البنفسج.

ميهول : ولكن كيف يمكن لطريق حجريٍ أن يكتسب كل هذه الألوان يابريدچين لوا؟

بريدچين : كان ثمة أربعة طرق.

ميهول : أربعة... وطريق واحد فقط الآن؟

بريدچين : كان طريقًا واحدًا فى ذلك الحين.

ميهول : (متحيراً) لكنك قلت إنها أربعة.

بريدچين : طريق واحد. وعددٌ من الطرق للسير فى هذا الطريق، بعدد الألوان، واحدًا بعد الواحد..

ميهول : لست أفهمك يابريدچين لوا. افتحى عينيكِ. أخافكِ عندما تتكلمين على هذا النحو.

بريدچين : لستَ إلا طفلاً ياميهول ماك تارف.

ميهول : أنا أكبر منكِ بسنة.

بريدچين : إنما يُعتد بالعقل.

ميهول : لابد أن الأمر يكون عظيمًا عندما يكون المرء شيخًا.

بريدچين : ماذا تعنى «عظيم»؟

ميهول : أن يكون المرء مثل الباقين جميعًا. كلهم قد تجاوزوا الستين من العمر. يكون للمرء كلمةعظيمة فى الستين من العمر. يكون المرء قد جمع حصاداً من الأفكار الغريبة فى ذلك الوقت كله. يخجلنى حقًا أن أكون بهذا الشباب أحيانًا. هل يخجلك ذلك يابريدچين لوا؟

بريدچين : لا لا يُخجلنى. فإننى أبلغ من العمر مئاتِ السنين.

ميهول : فى هذا تختلفين عنّى. لست أبلغ من العمر شيئًا على الإطلاق... بريدچين لوا...

بريدچين : نعم؟

ميهول : هل سمعتِ أبدا بجزيرةٍ قد ماتت؟

بريدچين : لا لم أسمع

ميهول : ولم أسمع أنا.

بريدچين : ولماذا تسأل..؟

ميهول : هذا ماقاله المعلم...

بريدچين : ثم خمّر الخمر المحظورة فيما أظن. ماذا قال؟

مـيهـول : إن الجزيرة سوف تموت. قال إنه سيحدث ماحدث للقرية القديمـة عند سفح كوريـج، ذلك المكان الذى تقوم فـيه الأطلال المتهـاوية. كنت أفكركيف تسوء الأمـور حـقًا لو ان الجزيرة ماتت قبلى أو قبلكِ يا بريدچين لوا..

بريدچين : مهما حدث فلن يكون خسارةً عندى..

مـيهـول : ولمَ لا يكون خسارةً عندك؟

بريدچين : إننى راحلة إلى أرض البلد الكبيرة من الغد...

مـيهـول : لستِ راحلةً نهائيًا..؟

بريدچين : بل نهائيًا بالتأكيد.

مـيهـول : بأى طريقٍ ستذهبين..؟

بريدچين : عن طريق قـارب البـوتشين مع الخـمـر المـقطَّرة سـراً بالطبع...

مـيهـول : قارب البوتشين..؟

بريدچين : أى طريق آخـر هناك؟ ليس فـى القـرية من لديهُ القـوةُ أوالحِذق ليعبر بى فى قاربٍ من القماش المشدود...

مـيهـول : أنتَ راحلة بهذه السرعة.

بريدچين : خير البر عاجله عندى..

مـيهـول : كـان المعلّم يقـول إن سور الرصـيف فى خطر.. كـان داجدا قد بناه.

بريدچين : نعم... أتذكر ذلك...

ميهول : لو انهار ذلك الجدار ما عاد من الممكن أن يفد إلى الجزيرة أو يرحل عنها أحد، الصخور والهضاب مركومةٌ حواليها، وقد نُسيتْ طرائقُ الغزاة الأقدمين وحذقُهم. لو انهار الرصيف وتهاوى ما عادت تأتي قوارب الخمر المقطَّرة من أرض البلد الكبيرة فماذا يفعلون بالخمر المقطَّرة؟

بريدچين : سويتُ المسألةَ عند ظهر اليوم. وفى مثل هذه الساعة غداً سأكون في طريقى.. أمضى فى قاربٍ يصعد عاليًا على زبَد البحر..

ميهول : (ببطء) إلى أرض البلد الكبيرة نهائيًا. لن... أراكِ مرة أخرى أبدًا يابريدچين لوا.

بريدچين : (دون انفعال) ليس من المحتمل أن ترانى.

ميهول : (مهولاً) تلك فكرة مخيفة. «أبدًا». كم ينبغى للمرء أن يمضى حتى يصل إلى نهاية هذه الكلمة: «أبدًا»...

بريدچين : (يغلفها حلمُها) سأكون ملكةً أرفل فى الدمقس والفضة والذهب حيث أنا ذاهبةٌ وروح داجدا المبعوث سوف تبحث عنى وتعثر علىَّ وتأخذنى الجياد الفضيةُ الأربعةُ سِراعًا كأنها الرياح، سوف تحملنى وتصعد بى إلى قاعات الشمس وأبهائها. وهناك سوف تكون مملكتى فى المجد، إلى أبد الآبدين (تخرج).

ميهول : (وقد استغرقته مشكلته الخاصة). . أعود بفكرى إلى الوراء وإلى الخلف ما من شيء يعوق الأفكار فى رأسي. ولو أننى واصلت العودة بذهنى إلى الوراء فلابدَّ لى من أن أصل بمرور الوقت إلى نهاية هذه الكلمة «أبدًا». لابدّ لى من ذلك يا بريدچين لـوا، لابدّ لى من ذلك.

المشهد الرابع

(خارج بيتٍ مطليٍ بالجير، وداخله. فيرجوس والمعلّم يقتربان من شرفة البيت. فيرجوس يجهد فى أن يسند المعلم الذى يطوّح به السُكْر...).

فيرجوس : هانحن عند المدرسة القديمة الطيبة أخيرًا يامعلّم. تماسك يامعلم، حتى أمسك بمقبض الباب. . . .

المعلم : مهلاً. مهلاً. فيرسين جيتوريكس[1] يأتى إلى قيصر مصفدًا بالأغلال. إننى الإله يافيرجوس، إننى الإله. .

فيرجوس : كَفَى يامعلّم. . .

المعلم : إننى الإله الذى صاغ الأغلال التى استُرِقّ بها. إننى أُشفق على فيرسين جيتوريكس، إننى أُشفق على بومباى، إننى أشفق على قيصر. . .

فيرجوس : نعم يامعلم. .

(١) فيرسين جيتوريكس : قائد وحاكم من بلاد الغال. كان رئيسًا لحلف بلاد الغال ضد قيصر. دافع بنجاح عن بلاده ولكنه حوصر وسلم نفسه إلى قيصر واقتيد إلى روما ثم أعدم بعد ست سنوات من الأسر .

المعلم : إننى أفِد مصفَّدًا بالأغلال إلى أبهاء انتصاراتى السالفة. .

فيرجوس : نعم يامعلّم، هذا حق. لو أنك الآن تحركت قليلاً إلى الأمام. . .

المعلم : (بقتامة) فيرجوس يا رجل. . .

فيرجوس : ما الأمر يامعلم؟ ماذا حدث؟ إلام تُحدِّق. . ؟

المعلم : فى شق الحجر الصخرىّ. أحد سكان كوربج. !

فيرجوس : إنه نبات قفاز الثعلب البنفسجى يامعلّم. .

المعلم : أيها النبات الصغير المخاتِل. . أصابع دَلِيلة فى الجذور تتلمّس طريقًا جائعًا بين الأحجار.

فيرجوس : والآن يامعلم، عندما ندخل إلى غرفة الفصل فى الداخل، عليك أن تتذكّر ماذا عليك أن تفعل.

المعلم : علىّ أن أنزع الثِقَل عن قَدَمىَّ المتعثّرتين، قَدَمىّ المخطئتين يافيرجوس. .

فيرجوس : هذا صحيح معلم. . . .

المعلم : وأن أمسكَ لسانى وأكبح مِن جماح كلّ نِزعةٍ طبيعيةٍ قد أحسها فى أن أصارح أوفاس ماكود بما نعتقده كلانا فى آرائه السياسية. صحيح. . ؟

فيرجوس : صحيح والآن سوف ندخل. . .

المعلم : (يوقفه) فيرجوس. . !

فيرجوس : (صبوراً) ما الأمر يامعلم؟

المعلم : أنا سكران سكرةً ملوكية...

فيرجوس : نعم يامعلّم.

المعلم : فيرجوس، عندما أكون صاحيًا مفيقًا فإننى مبتذَل سوقىّ.. وعندما أكون سكرانًا فإننى عظيم. يجب أن أُولّى وجهى عن عربدة الصحو...

فيرجوس : سوف ندخل الآن يامعلم...

المعلم : أنت فأر مغبرّ يافيرجوس وأنا فأر داكن.. ولكن حكايتى أنا حكايةٌ أطول وحكايةٌ أعظم حزنًا وكآبةً من حكايتك...

المشهد الخامس

(فى داخل المدرسة. ينعقد ثَمَّ اجتماعٌ يرأسه داهى باكود الذى يُعرف باسم أو فاس أو «الداهية». سكان الجزيرة عن بكرة أبيهم هناك، باستثناء بريدچين وميهول).

داهـــى : (بكل «إخلاصٍ» سياسىٍّ محترف)... إن لنا ميراثًا وتقاليد لايضارعها شىءٌ فى العالم. ونحن أهل هذه الجزيرة لنا واجب نحو الماضى، نحو كل الأبطال من أعراقنا، أولئك الذين نهضوا بأعمال لاحد لها، وضحُّوا بأرواحهم لكى يهبونا ما نملك، ويصنعون منا ما أصبحنا عليه الآن.

أصوات : هذا حسن، هذا حقّ منك، هذا ديننا لهم... إلخ.

داهـــى : وأظنكم تعرفون جميعًا الآن أن فتاة فيرجوس أوجرين - التى دخلت الآن مع المعلّم - راحلة إلى الأرض الكبيرة غدًا. ومن المؤسف، على نحوٍ ما، أن نراها تذهب. إننا جميعًا نحبّ بريدچين لوا، ومن اللطيف بالطبع أن نرى الشبان حوالينا. ولكنها ذاهبة على أى حال،

وإننى لواثق أنها ستكون موضع فخر الجزيرة التى وُلِدَتْ فيها وأنها ستكـون جديرة بدين جنسنا العريق وتقاليده، بما تمتاز به من حسن الإدراك والتقوى. وإننى لأعتقد أن الأرض الكبيرة المظلمة أحوجُ منا هنا إلى دماثتها الدقيقة وبساطتها. ومن ثَمّ فنحن نرى يد داجـداً تفعل الخير فى إهابها. (يرتفع صوت بالاعتراض فوق كورس التحبيذ) هل سمعت أحداً يعترض؟

(صمت) لا؟ إن بريدچين لوا، كما تعرفون جميعًا: هى آخر مَنْ تبقَّى على الجزيرة من الشباب: و...

المعلم : وماذا عن ميهول ماك تارف؟

داهى : (بنعومة) نعم، كما يقـول المعلم - وبحق - مـاذا عن ميهول ماك تارف؟ الحقيقة بالطبع، أن هناك ميهول... (مرحِّباً بموجة الضحك الساخرة) بريدچين لوا، إذن كـما كنت أقـول، هى آخر مـن تبقى على الجـزيرة من الشباب... وعندما تمضى، ستبقى الجزيرة كلها للشيوخ سيظل منا ثمانية -

المعلم : وميهول ماك تارف.

داهى : (متجاهلاً الاعتراض) عليهم واجب الإبقاء على التقاليد المجيدة الـتى تركها لنا داجدا وحـضارة شعبـه المختار، ولكنى موقن أننا لن نتخلى عن أداء واجبنا.

صـوت : لا، لن نتخاذل. مادام فينا نفس يتردد.. حتى آخر أنفاسنا.

داهـى : سنواجه عملاً شاقًا فى التقطير.

المعلم : وماذا عن فلاحة الأرض.؟

داهـى : ما هذا؟ ألديك ثَمّ ما تقول لنا يامعلم؟

المعلم : نعم (يتجاهل كل احتجاج) عودوا إلى بيوتكم. إن المستأجرين فى كوريج قد اغتصبوا الحقول. أجنحة غراب الجيفة القانية الدموية قائمةٌ فى السماء. انزعوا الصدأ والنفاية عن المحراث والمنجل. إن المستأجرين فى كوريج قد استولوا على الحقول.

داهـى : يامعلم، من السهل أن نرى أنك لست فى خير حال. إنما نكسب عيشنا من صناعة الخمر المقطَّرة لا من فلاحة الأرض. إن داجدا علَّم آباءنا سر الخمر المقطَّرة فى أيام العالم العظيمة. لو أننا نبذنا صناعة الخمر المقصرة فإنما ننبذ أعمال داجدا.

المعلم : ولو انهار رصيف الميناء من إهمال إصلاحه فما مصير صناعة الخمر المقطرة عندما تتقطع السبل بين هذه البقعة والعالم؟

داهـى : لقد بنى داجدا ذلك السور فى العهد البنفسجىّ للعالم. فَمنْ الرجل الذى يجرؤ على التدخل فى أعمال داجدا

الإلهيــة؟ ربما كانت لك الحكمة والحـصافة، كـما تراها عقـول الناس الفانـين، تلك العقـول الصغيـرة، ولكن داجدا، عـندما بَنى ذلك الرصـيف، قد بناه لكى يبـقى مادامت حاجةٌ إليه. ليس من شأن رجالٍ مثلنا أن نتدخل فى أعمال داجدا.

أصوات : لا، ليس ذلك من شأننا حقًا. أليس الرب خيِّرًا؟ فلنترك الرصيف وشأنه.

المـعـلـم : (مستيئسـا) من أنتم جمـيعًا إن لم تكـونوا حفنةً من الحمقى المخـبولين؟ **(متـعثّـراً فى طريقه إلـى الخارج)**، حمقى، حمقى، حمقى.

داهـــى : **(بعد أن تنحسـر الضجة)** الآن وقد ودّعنا المعلم، أعتقد أن الوقت قـد حان للصـلاة. لنشكر الرب على نعمـائه وعلى المحـصول الطيب الذى واتـتنا به الخمـر المقطّرة. **(بعد أن يتدافـعوا ويتخذوا أوضاعـهم المـلائمة للصلاة، يستطرد فى ثقة)** ها نحن مرةً أخرى نرى أن المعلّم ليس فى خـير حـال. إنه قد اقـترن بالجـزيرة. . ذلك الرجل المسكين، عـنده الإيمان الخـالص الذى يعـمـر قـلوبنا نحن. ولاشك أن المـعلّم كـان يـريدنا، لو أُتيـحت له الفرصة، أن نحاول تحسين كـل أعمال داجدا وصنائعه. كان يريدنا أن نرفـع الأسوار الجيـرية البيضـاء، ونحرث

التـلال، ونربّى الماشـية فى الغـيطان والسـهول. كـان يحاول أن يجـعل من صيت داجدا الذائع ظلاً شاحـباً. ولكننا نحن الذين نُجِلّ داجدا نعرف كم هو باطل وقبض الريح عمل البشـر الفانين، نحن نذكر حكايةً تُروَى عن أولئك الحـمقى الذين حـاولوا أن يشـيدوا برجـا يطاول السماء فى بابـل القديمة. . . فلنصلِّ الآن: أيهـا الربّ، يا أميرَ الكون والشمس نحمدك –

أصوات : نحمدك –

داهـــى : لأنك جعلت منا ما نحن عليه الآن.

أصوات : لأنك جعلت منا ما نحن، عليه الآن.

داهـــى : لأنك وهبتنا ماضينا الذى لايموت.

أصوات : لأنك وهبتنا ماضينا الذى لا يموت.

داهـــى : لأنك أعطيتنا الحاضر الذى نتأمل فيه ماضينا.

أصوات : لأنك أعطيتنا الحاضر الذى نتأمل فيه ماضينا.

داهـــى : لأنك تحفظ لنا. المستقبل حتى نزيد فيه من تدبّرنا للماضى.

أصوات : لأنك تحفظ لنا المستقبل حتى نزيد فيه من تدبّرنا للماضى.

داهـــى : أيها الإله الخالد، اغفر لأولئك العميان الذين لا يبصرون خيراً فـينا، واغفر للمـعلم الضال كبرياءه العـقلية. نحن خُدّامك نتضرع إليك، نتشـفع إليك بالشمس، والقمر، والأرض، والسماء والميـــاه الحية، أن تبدى لنا علامة، إذا كنا، نحن شعبك المختـــار، قـــد ضللنا الطريق – **(تُسمع دمدمةٌ بعيدة خفيضة. تطّرد ارتفاعًا).**

أصوات : (قد هالها الرعب) ما هذا؟

فيرجوس : زلزلت الأرض.

جـــول : زلزال.

امـــرأة : صوت داجدا.

فيرجوس : العلامة.. !

جـــول : العلامة! المجد لداجدا - العلامة.. !

فيرجوس : (مـرتعـداً) داهى، إنهـا العـلامـة التى أبداها داجـدا - العـلامة التى طلبـتَهـا لكى تُبـدى ما إذا كنا قـد ضللنا الطريق.

جـــول : (فى خوف) داجدا غاضبٌ علينا.

امـــرأة : هل أخطأنا فى حقّه.؟

داهـــى : اهدءوا الآن. يجب ألا نتسرع. لا يسـمحنّ أحدٌ منكم لنفسه أن يقرر ماذا يدور فى ذهن داجدا.

امـــرأة : ولكن العلامةَ التى تضرّعت من أجلها ياداهى -

داهـــى : هذا الصوت كان بشـيراً طيبًا. كان ذلك صـوت القبول أقول لكم. (منتصراً) لقد خاطبنا داجدا بنفـسه: علامة كبرى من عـلامات القبول. إنها تبـرهن بما لا يرقى إليه ظلٌ من شك أن إيماننا - (يدخل المعلم) مازال إيمانًا حيًا يعيش.

المعـلـم : داهى.ماكو، إنه إيمان يعيش فى قـبر. لقد انهار رصيف الميناء. انقطعنا الآن عن العالم، إلى الأبد.

المشهد السادس

(ربوةٌ تطل على موقع رصيف الميناء. أهل الجزيرة يقفون فى جماعات صامتة. يتنقّل داهى ماكوِ جيئةً وذهابًا، فى غير راحة. يتوقّف ويُسفّ البصرَ إلى البحر. يدعو الآخرين، بإشارةٍ من يده، فيتجمعون حوله. يُسمع صوت قاربٍ بخارى).

چــول : آه، ياالعينىَّ الواهنتين. لست أستطيع أن أراه فى بهرة الشمس ووقدتها الساطعة.

فيرجوس : ها هو ذا يمضى. إنه يدور. قارب الخمر المقطَّرة يستدير راجعًا.

داهـى : يستدير فارغًا.

چــول : راجعًا إلى الأرض الكبيرة. فلتساعدنا السماء الآن.

فيرجوس : لا يجرؤون أن يدفعوه فى هذا الموج المتلاطم. وحتى لو استطاعوا أن يصلوا إلى الشاطىء، فما عاد بوسعهم أبدًا أن يُقلعوا بهذا القارب وعليه حمولته.

چــول : (بجنون) كل هذه الخمر المقطَّرة باقية بين أيدينا. ماذا نفعل؟ لا شعير ولا قمح قد ضِعنا. ضِعنا..!

فيرجوس : هذه نهاية آمالنا.

چــول : نهاية العالم. قد تخلى عنا داجدا.

داهــى : (بصرامة) لا تجدّف ياجول مـاكْ تارف. إن داجدا يفعل ما فيه الخير.

فيرجوس : لو كنا نستطيع فقط أن نبنى سور الرصيف.

داهــى : الأمواج قد انتـزعت مابقى منه وابتلعته المـياه. ومالدينا القوة ولا المقدرة على عملٍ من هذا القبيل.

چــول : (فى ولولة يائسة) ياالليوم المشئوم. . !

فيرجوس : مضى القارب. ابتلعته بهرة الشمس.

چــول : انقطع ما بيننا وبين العـالم. ما مصيـرنا؟ أىّ مآلٍ سوف نصير إليه؟ (يشتطّ به البكاء)

داهــى : ها هى ذى بـريدچين لوا. لن تـسـتطيع الـذهاب إلى الأرض الكبيرة الآن.

(بريدچين تنهار، وتمضى باكية)

داهــى : أما البقية الباقية منّا -

چــول : فسوف نستقرّ هنـا بقية أيامنا، ننتظر أن نموت أحدنا بعد الآخـر. سوف نسـقط واحـدًا بعد الآخـر. وقـد ذبلنا وَعَلتْ بنا السنّ.

داهــى : سيكون الأمر شاقًا على آخر من يبقى منا.

چــول : سيكون من شـؤم حظىّ على وجه الدقـة أن أبقى حتى الآخِر. آه، لمـاذا يحطّ الشقاء بكلّ ثقله الرازح.

فيرجوس : ليس من المحتمل أن تبقى على قيد الحياة بعد بريدچين لوا.

داهـــى : الطبيعىّ أنها ستبقى وحدها هنا.

فيرجوس : ابنتى تبقى وحدها على الجزيرة بعد أن نكون قد مضينا جميعًا. تلك فكرة فظيعة.

چـــول : هى وابنى ميهول.

فيرجوس : ميهول (مروَّعًا) مع ميهول.

چـــول : وحدهما كلاهما بعد أن نكون قد مضينا. بريدچين وميهول.

فيرجوس : وحدهما كلاهما وما من أحدٍ يرعاهما. ياللعار.

داهـــى : أنكى من ذلك يافيرجوس. افتضاح العار. العار هو الأسى لواحد أو اثنين، ولكن افتضاح العار هو الأسى للجميع..

فيرجوس : ما الذى سيُحيق بابنتى المسكينة البريئة؟

داهـــى : ليس هناك إلا شىءٌ واحد يافيرجوس.

فيرجوس : نعم، نعم. عندما أوشك على الموت، سوف أغمد سكينًا طويلة الحد، بقوة مفاجئة، فى قلبها.

داهـــى : (محبّذًا) عمل جدير ببقاء الذكر أبدًا.. ولكنه ليس ما كنت أفكر فيه.

فيرجوس : فى طريقة تموت بها؟

داهـــى : يجب أن يتزوجا.

فيرجوس : (وقـد حـاقت به الـدهشـة التى تتناسب مـع هذه الفكرة الرهيبـة لحل المشكلة) ماذا؟ بريدچين لوا، ابنتى مـتألقة العينين، تتزوج بمهيول ماك تارف؟

داهـــى : الأسى طريق للخروج من حديقة العار.

فيرجوس : ولكن. . . ميهول ماك تارف.

داهـــى : ليس هناك من طريق آخر.

فيرجوس : الخيار بين العار والخزى.

چـــول : (فى شكّ) ميهول فتى طيب.

فيرجوس : مع هذا الميثـاق الذى يرتبط به؟ ألاَّ يقدم خاتمًـا لفـتاة، وألاَّ يخفى خداعًا؟ إن الرجل الذى يرتبط بمثل هذا النذر ليس جديرًا بالزواج على الإطلاق. كـيف يتزوج إلاّ إذا قدم خاتمًا؟.

داهـــى : بالوكالة، جول ماك تارف: يجب أن تخبر ابنك.

چـــول : بماذا أخبره؟

داهـــى : بالرغبةِ العظيمة التى يُكنِهّا فى قلبه نحو بريدجين لوا.

چـــول : سوف أحيطه علمًا.

داهـــى : ولا تتمهل. يجب أن تنتقـذهما من العار ومن أن يجلبا الخزى والأسى على الجزيرة.

المشهد السابع

(نفس المشهد الثانى – فى داخل كوخ آل ماك تارف.
جول وميهول معاً).

ميهول : كيف ظفرت بأمى فى الوقت الذى ظفرت بها.

چول : كيف ظفرت بها؟ آه يابنى! كان ذلك منذ زمان طويل. كنت رجلاً وثيق البِنية: كنت حديث الجزيرة إذا ما عَنَّ حديثٌ الشجاعة وأمارات الرجولة. وكانت الفتيات يهمن جنونًا بى وأنّىَ ذهبت كنّ حولىّ من كلّ جانب يُسدّدن إلىّ نظرات العيون الغزِلة. وفى النهاية استقر عزمى على أمّك.

ميهول : ولمَ هى فوق الأخريات؟

چول : لم يكن ذلك لجمالها – فلم تكن جميلة، حتى فى ذلك الحين، تلك المسكينة. ولم يكن ذلك لحجم المزرعة التى نعيش عليها الآن، فإن فكرة من هذا القبيل لم تكن لتخطر على بالى.. لعل ذلك أننى أُخِذتُ بمجد أعراقها، أنها تنحدر من أصلاب قومٍ عظام – أبطال،

وأشباههم أسلافًا عن أسلاف. ولعل ذلك أيضًا أننى أخذت بخصالها الطيبة. كانت تمتاز بطائفة نادرة من هذه الخصال قبل أن نتزوج.

ميهول : أبى، كيف تقدمتَ إليها؟

چول : آه.. كنت.. كنت قد لقيتُها ذات مرة وهى تقف وحدها على ذروة كروكان. فأقبلتُ أرقَى إليها وأحطت خصرها بذراعى و.. وقبلتها.. قلتُ: «سايف، سوف تتزوجيننى وليس ثَمّ كلامْ بعد ذلك يُقال».

ميهول : وكيف تقبّلتْ ذلك؟

چول : كيف كان يمكن أن تتقبلّه؟ لقد عرفتْ رجلها وسيّدها.

(كانت سايف قد دخلت فجأة، ينهض جول من مقعده ويخرج متعجلاً. فإذا خرج وقف عند الباب يصغى).

ميهول : أمّى، هل تذكرين كيف تقدم إليكِ أبى لترتبطا معًا بميثاق الزواج؟

سايف : نعم أذكر.

ميهول : جاء إليك.. و... وقبَّلك.

سايف : نعم.

ميهول : وماذا فكرت عندئذ..؟

سايف : ظننت أنه لابدَ قَد شرب شيئًا أعطاه تلك الجرأة. ولم أتردد، على الفور، فى أن أسددّ إليه لطمةً على فكّه.

ثم رجعت على أعقابى وتركته واقفا مدلَّى الجناح كغرابٍ بقى طويلاً تحت وابل المطر.

ميهول : ولكن. ولكن ألم ترتبطى معه بميثاق الزواج؟

سايف : عندما رددت إليه النظر رأيتُه يحك فكهَ المشعَّث مائلاً إليه بعينيه المتبلدتين هاتين. فماذا كان بوسعى إلا أن أشفق على المخلوق الأحمق المسكين الذى لا حول له ولا مُنّة.؟

(ميهول يفتح الباب فيجد جول يتسقّط السمع. يترامقان فينقل جول خطاه متثاقلا متأثّمًا. يعبر ميهول إلى حيث يجلس المعلم على جدار حجرىَ منخفض. يصحو المعلم من حلمٍ كان يستغرقه).

المعلم : هكذا إذن ياميهول ماك تارف، سمعت أنك تنوى أن تكسب يد بريدچين لوا الشقراء؟

ميهول : نعم يا معلّم. كنت أفكر أنك لعلك تعرف ما هو خير لى أن أفعل: أنتَ بحكمتك وذكائك، أنت أحكم رجل فى الجزيرة، بعد داهى. ثم أليس الناس هنا أحكم الناس فى طول العالم وعرضه؟

المعلم : (ليس صاحيًا من السُكر إلا نصف صحوة) عندى مَثَل يقال. كانت توجد جزيرة ذات مرة، حالة عقلية كان المرء يحتقر فيها صورة ذاته لأنه فى الحال التى هو عليها،

ويبُغض مَنْ حواليه لأنهم ليسوا بأفضل منه ولا أسوأ. ووراء ذلك العالم كانت تقوم مرآة، تعكس صورة الأشياء التي كانت توجد فتحيلها رموزًا لا يُسبر غورها، عن الأشيـاء التي كان من الممكن أن توجد. نزوعٌ متطاول يحفز الحقيقةَ وينخسها فيُحيلها إلى ما هو غير حقيقي (في جدّ) ميهول ماك تارف، نحن جنسٌ من الآلهة المذنبين.

ميهول : ولكن يامعلم، كيف أظفر ببريدچين لوا؟

المعلم : (راجعًا ببطء) بريدچين لوا... آه. نعم.

ميهول : كيف أغريها على أن تطاوع ما أريد؟

المعلم : بريدچين لوا...

ميهول : (متنهدًا) بريدچين لوا يامعلم.

المعلم : (يحس بالعتاب في لهجة ميهول) الثناء ياميهول ماك تارف هو الطريق الأمثل نحو قلوب النساء. هذا ما يقولون. لو كنت أصحح أوراق الامتحانات لأعطيت هذه الإجابة نفسها الدرجة القصوى. ميهول ماك تارف... الإجابات لا تتغير قط في أوراق الامتحانات.

ميهول : نعم يامعلم... سأذهب الآن..

المعلم : قبل أن تذهب ياميهول ماك تارف: عندي سائل سحري في هذه القنينة الصغيرة، فلو حسوت منه جرعةً وجدت

لديك شجاعة الأسد وقاريتّى فى الحكمة (يخرج القارورة) هاك ياميهول ماك تارف تناول قطرةً من هذا.

ميهول : سوف تهبنى القوة؟

المعلم : قوة داجدا..

ميهول : وتجعلنى حكيمًا؟

المعلم : فى حكمة داجدا.

ميهول : (فى حماس) سأشربها إذن (يشهق ويسعل فيتطاير الرذاذ من فمه) آه، ياالله لسانى احترق احتراقًا، وحلقى يذوب من السخونة.

المعلم : هذه عباءة الرجال الخالدين تُسربلك ياميهول ماك تارف. وبعد قليل من الوقت ستعرف أنه ما من رجلٍ فى العالم جديرٌ بأن يقارب مكانتك. اذهب، سريعًا، إلى بريدچين لوا قبل أن ينحسر السحر.

ميهول : (متقدمًا) سأذهب يامعلّم (يمضى) سأجرى لأبحث عنها يامعلّم (يستدير) يا معلم، إننى أبدأ فى أن أحسّ بنفسى فتى عظيمًا. فتىّ عظيمًا - قويًا وحكيمًا. قويًا وحكيمًا.

(فيم كان ميهول يتكلم تدخل بريدچين لوا. لا تلقى بالاً إلى ميهول أو المعلّم. تدير ظهرها وتقف وهى تحدق إلى السماء حالمة، يراها المعلم ويشير إلى ميهول، يمضى المعلم وهو يغمز بعينه إلى ميهول. يستجمع ميهول شتات

شجاعته ويسرع إلى بريدچين لوا يمسكها من خصرها ويقبّلها قبلة متعثرةً هوجاء. تستدير وتصفعه).

ميهول : ارتبطي معي بالميثاق يابريدچين.

بريدچين : (ضاحكة) أنت ياميهول ماك تارف، أرتبطُ معك بالميثاق؟

ميهول : (مرابطًا على أرضه، مستكنًا) نعم يابريدچين لوا. . لم لا؟

بريدچين : (مقهقهةً) أنا أتزوجك، بينما قد أفكر كثيراً لو تقدم داجدا بنفسه إلى عتبة بابي دون أن يحمل معه رزمة من أفعال الأبطال. أرتبط معك بالميثاق حقًا ياميهول ماك تارف. .

ميهول : لعلني أكون قرين داجدا ونظيره يابريدچين لوا، دون أن تعرفي.

بريدچين : (في عجب) ماذا دهاك حتى تملأ فمك بهذه الأقوال الكبار؟

ميهول : لم لا أكون جديراً بأن أقوم بما صنَع داجدا. . ؟

بريدچين : أنت. . . من أنتَ إن لم تكن طفلاً في طرائق الحياة. . ؟

ميهول : (بقتامة) كيف تعرفين أنه لعلني متمرس بطرائق خارج هذا العالم؟

بريدچين : ألست أعرف النسيج الذي صُنعت منه؟

ميهول : كيف تعرفين أنني لست داجدا عائدًا إلى الأرض، كما قيل إنه سيعود؟

بريدچين : (مروّعة كما يليق أن تروّع) أوه، ميهول ماك تارف.

مـيهـول : (بجسارة) لم لا يُبعث داجدا على شكلى؟
بريدچين : ميهول ماك تارف أى كلام شرير ذاك الذى تقول؟
مـيهـول : أى برهان عندك أننى لست داجدا؟ أى برهان؟
بريدچين : النَذْر الذى أنت مرتبط به أولاً -
مـيهـول : سور مرفوع - لكى يُظهر براعة تجاوزه.
بريدچين : لم تفعل أعاجيب قط..
مـيهـول : لم أحاول قط.
بريدچين : لم تصنع أعمالاً كباراً ولا صنائع أبطال ولا سفكت دمًا في حرب ضروس..
مـيهـول : لم تكن بى إلى ذلك حاجة.
بريدچين : (بازدراء)
لست أعتقـد أن بوسعك أن تفعل شيئًـا سواء كانت بك إليه حاجة أو لم تكن.
مـيهـول : سوف ترين بنفسك.
بريدچين : وكيف أرى ذلك؟
مـيهـول : (فى هدوء درامى) سوف أصنع عجبًا..
بريدچين : (الشك ممتزجًا بالفضول) لن تصنع شيئًا؟
مـيهـول : بل سأفعل..
بريدچين : لن تفعل شيئًا أبدًا.
مـيهـول : سأفعل.

بريدچين : ما الذى ستفعله؟

ميهول : سوف أبسط الأزهار فى حقلٍ من الحقول خلال ليلةٍ واحدة.

بريدچين : داجدا فعل ذلك فى طول الجزيرة وعرضها.

ميهول : سيكفينى حقل واحدٌ. فى هذا الكفاية أبدأ به. الحقل عند حافةَ المستنقع إلى يسار البيت سوف أبسط عليه أزهار الخشخاش القانية المتألقة حتى ارتفاع ركبتيك.

بريدچين : ستفعل ذلك الليلة..؟

ميهول : الليلة يابريدچين لوا.. سأفعله.

بريدچين : حتى ذلك ليس بالشىء الذى يفعله داجدا.

ميهول : لم أفرغ بعد... فهناك القنابل.

بريدچين : (بانفعال مكتوم) القنابل؟

ميهول : القنابل التى أخفاها فينبار تحت أرضية البيت.

بريدچين : (فى نشوة) قنابل.

ميهول : قنابل يُلْقَى بها (عَرَضًا) أسلحة الأبطال.. إنهم لا يعرفون فى البيت أننى أعرف أين هى.. ولكنى أعرف، ولعلنى الليلة أخرجها من مخبئها.

بريدچين : وما الذى ستفعل بها.. ياميهول؟

ميهول : كان لطيفًا منك أن تقولى ذلك.

بريدچين : أقول ماذا؟

ميهول : «ميهول». ليست في جفاف وصلابة «ميهول ثاك تارف..

بريدچين : (في رقة) سأدعوك دائمًا ميهول إذا أحببت...

ميهول : أُحب أن تدعوني ميهول

بريدچين : ميهول، هل.. هل تُطلعني عليها؟

ميهول : أزهار الخشخاش؟ نعم بالتأكيد...

بريدچين : سوف تُريني القنابل.. عندي رغبةٌ شديدة في أن أرى القنابل ياميهول.

ميهول : (في شك) هذه مسألة...

بريدچين : أرجوك ياميهول (في نعومة واغراء) أرجوك ياميهول..

ميهول : فليكن إذن. الليلة عندما يصلي أبي وأمي عند البئر: سوف أخرجها. فإذا جئت في ذاك الوقت...

بريدچين : (في شغف) سأكون هناك ياميهول. سآتي لكي أراها. وبعد ذلك لعلنا نذهب أنا وأنت في طريقٍ صغير منقطعٍ مُختبئ في ضبابٍ بنفسجيّ...

ميهول : نعم سنذهب يابريدچين لوا، بريدچين لوا، لست بعد بالفتى الهزيل الذى كنت. إن فيّ مقومّات رَجُل...

بريدچين : طريقٌ منقطع موحش سنذهب فيه.

ميهول : لكِ مكانة كبيرة عندي يابريدچين لوا، أحبك كثيرًا...

بريدچين : هذا كل شيء لا أكثر؟

ميهول : أحبك حبًا عميقًا.

بريدچين : (مشجعة) تحبنى؟

ميهول : (متعجلاً) قد تظنين أننى لا أعرف معنى الحب. ولكننى أعرفه. يحس المرء فى داخله بإحساسٍ شفاف يملأ أحشاءه وينفجر برقة فيفيض على كلّ حناياه. فى صباح أحد أيام الصيف رأيت جبل كروكان راكعًا إلى السماء الهادئة، وَغَرابةٌ نديةٌ تضىء بالصفرة فوق بنات الوزال، والطيور تشدو فوق وشوشة البحر. أحسسته يرتفع فى داخلى، عندئذ، ذلك الإحساس، وقلت لنفسى. كروكان هو أجمل شىءٍ فى العالم الواسع العريض.

بريدچين : كروكان.

ميهول : وعندما رأيتكِ منذ هنيهة عاودنى ذلك الإحساس. . .

بريدچين : (تساعده) ماذا عاودك ياميهول؟

ميهول : إنك. . إنك أشبه شىء بالجبل.

بريدچين : جبل؟ أنا. .

ميهول : (بإخلاص) كان نفس الإحساس يتحرك فى داخلى. بريدچين لوا، أنت صورة كروكان. حتى الندبة التى فى وجنتكِ اليسرى. . مثل الشقّ فى التل. . الشقّ الذى أحدثه داجدا برمح البرق يوم أن نزل على البر «فومور» العملاق. . .

بريدجين : (فى غضبةٍ متزايدة) أنا مثل جبل. وأنت ترى فىّ ندبةً. لدىّ ندبةٌ.

مـيهـول : وأنا مسرور بها بابريدچين لوا. .

بريدچين : مسرور بها. .

مـيهـول : كنت خليـقًا بأن أخشى أى شـىء ليس فيـه عـيب ما. كنت خليقًا بأن أخشى مثل هذا الشىء. . .

بريدچين : ذلك هو البرهان.

مـيهـول : البرهان على ماذا؟

بريدچين : ما كان داجدا ليقول أبدًا أن لدى عيبًا. .

مـيهـول : ولم لا؟ لم تكن عيناه أظلم من عينى. .

بريدچين : (فى صراخٍ حاد) ولو كان ذلك صحيحًا حتى، فما كان ليقوله لى. .

مـيهـول : بريدچين لوا (متعقلاً جدًا) لست تعطين داجدا حقّه على الإطلاق. تجعلينه كاذبًا ونصف أعمى. . .

بريدچين : (فى ثورة عارمة) أوه. أوه. ميهول مـاك تارف. ميهول مـــاك تارف، سـوف أنـــزع لك عـينيك الاثنـتـين **(تمسك بخناقه، فـيفر ويجرى تتـعقبه بريدچين. يسـتدير عـائـدًا. فى اللحظة الـتى توشك أن تمسك به يـفلت من قبضتها، فتتعثـر وتقع. يندفع ميهول مختبئًا خلف الجدار الحجـــرى. تنهض بريدچـــين وتنطلق للبـحث عنه. فإذا مضت خرج ميهول من مخبئه).**

ميهول : (ينهج) أفلتُّ.. أفلتُّ فى الوقت المناسب. ماذا.. ماذا عنّ لها حتى تهجم علىّ بهذا الشكل؟ رأسى ينبض ويدق بشكل جنونىّ. هاهى ذى مطرقة «جوبنيو» العجوز الهائلة تثب على السنديان، والمنفاخ يصفر بالألم فى أوصالى جميعًا. ولسانى أضخم من فمى. ذلك الشىء الذى أعطانيه المعلم. سوف.. سوف..!! أوه..

المشهد الثامن

(نفس المشـهد السـابق – فى داخل البـيت.. الوقت مسـاء. ميـهول وحده. يمسك قنبلةً يدويةً فى يده. تصل بريدچين لوا خارج الباب وتطرقه بحذر....)

بريدچين : (فى لهجة تُخافت بها) ميهول.. ميهول، هل أنت هنا؟

مـيهـول : مَنْ.. مَنٌ هناكَ؟

بريدچين : أنا – بريدچى. بريـدچى حـبـيـبـتك. هل تسـمح لى بالدخول ياميهول؟

مـيهـول : أوه، هذه أنتِ. تسـتطيعــين أن تدخـلـى، لو وعدتِ بألا تهجمى علىّ،كما فعلت بعد الظُهْر.

بريدچين : أعدك...

(ميهول يفتح لها الباب)

بريدچين : أنت وحدك هنا؟

مـيهـول : نعم. ذهب أبى وأمى إلى البـئر، لكنهمـا سيـعــودان بعد قليل...

بريدچين : جئت لأرى. . . القـنابل. . ولأقول لك. . إننى آسـفة لأننى أخفتك بهذه الطريقة عـندما كنا على كروكان بعد ظهر اليوم. . .

مـيهـول : خلعتِ قلبى. . .

بريدچين : لم يكن ذلك على سبيل الجد أبدًا. كان مزاحًا. . .

مـيهـول : مزاحًا؟

بريدچين : نعم، هذا كلّ ما كان. . .

مـيهـول : (فى شكّ) لابد أننى أخطأت فـهم قصـدك إذن، ولكن كان لى عذرى عندما سلختْ تلك الصخرة أذنى. . .

بريدچين : ما كنت لألحـق بك أذى فى سبيل أى شىء فـى العالم ياميهولِ.

مـيهـول : صحيح؟

بريدچين : نعم، صـحيح، يامـيـهول. . هل تسـمح لى بأن أراها ياميهول؟

مـيهـول : سوف أجعلكِ تـرين هذه التى فى يدى. تعالى هنا إلى المصباح. ولا تحدثى صوتًا. وإلا حدث ضجيج وأمسك بنا متلبسين. انظرى. . .

بريدچين : (تشهق من الإعجاب والنشوة) أووه. .

مـيهـول : هاهى ذى. إنها لطيفة، أليس كذلك؟

بريدچين : (فى غبطة جذلة) إنها بديعة ياميـهول. إنها أجمل شىء رأيته فى حياتى. كيف تعمل؟

مـيهـول : إنها.. يعنى... هذا شىء يَحسن ألاّ أخبرك به...

بريدچين : (فى عتاب) لن تخبر بريدچين حبيبتك؟

مـيهـول : إنهــا.. إنهــا طريقــة معقــدة تلك التى تعـمل بها. تلك حكاية تطول لو أخبرتك بها الآن..

بريدچين : ماذا يحدث عندما تعمل؟

مـيهـول : آه... ذلك يتوقف على كثيرٍ من الظروف...

بريدچين : هل رأيتِ واحدةً منها تنطلق؟

مـيهـول : أم م. لا.

بريدچين : هل رأيت ماذا تفعل؟

مـيهـول : أ.. لا.. ولكنى أعـرف كل شىء عنها. ليس ضـروريًا أن ترى كيف يعمل شىء ما دمت تعرفين كل شىء عنه.

بريدچين : يقولون إن قنبلةً كهذه شىء مخيف..

مـيهـول : نعم (بلهجة توحى بالأثر العميق) مخيف..

بريدچين : ذلك ما يستخدمه الأبطال..

مـيهـول : نعم، هذا صحيح..

بريدچين : ميهـول.. ميهول هل تظن أننى أسـتطيع.. أستطيع أن آخذها هنا فى يدى. لحظةً واحدةً فقط..؟

مـيهـول : آه... لا.. لا..

بريدچين : لحظةً واحدةً حـتى أستطيع أن أقـول: أحسـستُ بها فى يدى. . .

مـيهـول : ولكن. .

بريدچين : أرجوك ياميهول (متضرعة) هل تسمح لى؟

مـيهـول : طيبٌ لحظةً واحدةً فقط. . خذى احترسى. .

بريدچين : (تأخذها) إنها بالضبط مثل بيضـة عيد الفصح المصنوعة من الشيكولاتة. ولكنها، ثقـيلة. انظرّ إلى الفضة تلمع ساطعةً على الرأس والمقبض الصغير الذى يشبه الملعقة.

إن لها مـظهراً خبـيثًـا، ويقسم المرء أن فـيها نـوعًا من الحياة. كأنها رُمح داجدا النارىّ.

مـيهـول : أرجعيها إلىّ الآن. . .

بريدچين : أُضحّى بالعالم كله فى سبيل أن أحتفظ بها. . .

مـيهـول : (بقلق) أرجعيها إلىّ الآن بريدچين لوا. . .

بريدچين : وأكون سعيدة طيلة أيام عمرى وأنا أخفيها. . .

مـيهـول : أعيديها إلىّ يا بريدچين لوا، قبل أن يأتى أحد ويرانا هنا. . .

بريدچين : (فى حنان الأمّ) والحلقة الصغيرة فيها كأنها خاتم المقبض الذى يشبه الملعقة على الجـانب مثل رافعه المضخة التى على الطريق.

مـيهـول : (وقد استبدّ به القلق) أعيديها إلىّ يابريدچين لوا، حتى أرجعها قبل أن ترجع أمى.

بريدچين : ميهـول، سوف تعطينى حلقة المفتاح التى على جـانبها، الحلقة التى تشبه الخاتم سوف تعطينى هذا الخاتم.

مـيهـول : لا يابريدچين لوا، لا أستطيع . .

بريدچين : إنها تخرج من الدبوس الـصغير هنا. لن يفتـقدها أحد أبداً. وسوف أحتفظ بها إلى الأبد وأذكرك بها . .

مـيهـول : لا يابريدجين لوا،لا أستطيع . . .

بريدچين : بل سوف تعطينى الخاتم ياميهول . . ميهول.

مـيهـول : (على مـضض) طيب إذن على شـرط أن تعـيـديه إلىّ الآن، هذه اللحظة.

بريدچين : عدنى بذلك . . .

مـيهـول : (فى غير كرمٍ على الإطلاق) أعدك . . .

بريدچين : بل قل: «أعـدك أن أعـطيك الخـاتم يابريدجـين عندمـا تعيدين إلىّ القنبلة».

مـيهـول : أعدك بأن أعطيك الخاتم عندما تعيدين إلىّ القنبلة . .

بريدچين : «يابريدچين»

مـيهـول : يابريدچين

بريدچين : هاهى ذى . . . أعطنى الآن الخاتم لكى أحتفظ به لنفسى . . .

مـيهـول : أخشى ألا يكون فى ذلك خير . .

بريدچين : صـمتًـا، أسمعُ من يأتـى من هذه الناحيـة. هذه أمك وأبوك راجعين من البئر. بسرعة، أعطنى الحلقة . . .

ميهول : آه يا إلهى، هاهى ذى (**صرخة يأس وفزع من ميهول**) أوه، لقد ضِعْت. طار المقْبض الصغير.. والرأس الصلب ينزلق ناحيتى. ماذا أفعل الآن؟ لقد قُضِى علىّ. لست أستطيع أن أرجعها. وسوف يلاحظ أبى أنها مكسورة. سوف تقضى أمى على حياتى.

بريدچين : أعطنى الحلقة. لقد أوشكا أن يصلا. إلى أين تذْهب..؟

ميهول : (**متعجلاً**) عبر المستنقع. سوف أخفيها الآن. وسوف أصلحها عندما يتسنى لى الوقت سامحكِ الله يابريدچين لوا، لأنكِ جلبت علىّ هذا الاضطراب كله.

(**يخرج جريًا من الباب**)

بريدچين : انتظر ياميهول. سوف آتى معك على الطريق. أين أنت؟ أين أنت ياميهول؟ (**تذهب وراءه**) ميهول (**صوت انفجار**)

بريدچين : ميهول.

(**تدخل سايف وجول**)

جول : ما هذا ياسايف؟

سايف : دوىٌّ كأنه سيف «فِين» على درع داجدا فى الزمن الخالى. برقٌ أضاء السماء من ناحية الشرق...

جــــول : ماذا يمكن أن يكون؟ تظنين أنها علامة؟ فلتساعدني السماء. لقد ولدت منحوس الطالع. لعل داجدا بسببيله إلى أن يدمرنا جميعًا. لعله يضع للعالم نهاية، إذ وَجَد هذا القحط في الأبطال...

ســـايف : أيًا كان ذلك الذي حدث فقد كان شيئًا كبيرًا. ولكن العالم مازال حيًا بعده...

جــــول : الباب مفتوح.. وتيار الهواء قارس البرد عليّ. آه، بارد من لسعة بردِ الضباب.

ســـايف : هناك مَنْ في الخارج، آتيًا هنا. إنها بريدچين لوا، بنت فيرجوس أو جرين. كأنها تمشي في حلم.. بريدچين لوا، ما هذا الذي حدث منذ قليل؟

بريدچين : (وقد عادت) ميهول. يالها من أعجوبة.

ســـايف : أية أعجوبة يافتاة؟

بريدچين : فوق الخندق مَضَى، يثب نحو النجوم في السماء. رأيته كنسر ينقضّ من خلال بابٍ عظيم كأنه فيضان من ذهب..

ســـايف : خلال باب من ذهب؟ مَن؟

بريدچين : ميهول. والقنبلة في يده، كان متجهًا إلى المستنقع القريب. كأنه نسر أسود، ذراعاه مبسوطتان، مضى ينقضّ من الباب الذهبي...

سـايف : القنابل (يذهب إلى مخبأ القنابل) سايف، اختفت منها واحدة. لابدّ أن ميهول قد أخذها.

بريدچين : نعم.. كان فى ذلك مجدٌ عظيم، مـجدٌ يتجاوز سلطان هذا العالم. مجد يتجاوز كل شىء.

(تذهب)

سـايف : (تأخذ فى البكاء) لقد ذهب عنى. ابنى ذهب عنى...

چـول : (بصوت مبحوح) ابنى قد مات. مات كـالأبطال. ميتةً خليقةً به..

سـايف : ألا أراه أبدًا بعد.. ولدى المسكين..

چـول : (الوهم يصوغ لـه اليقين) ميتـةُ الشجعان. كان مـيهول موضع فَـخْرى. وفى الأيام القـادمة سيـقول الناس...

«كان چول ماك تارف أبًا لابنٍ من الأبطال».

سـايف : لِم لِمْ أكن أحنَى جانبًا عليه عندما كان معى؟

چـول : (لنفسه، فى ضراوة) كان ميهول من آل ماك تارف حقًّا، بكل جـوارحه. سـوف يرفعـون له الأحجـار والنصب ليكرموه عمّا فعل...

سـايف : ما المجد كله بإزاء ألمِ أُمّ تفقد أعز أبنائها؟

چـول : الحمد لله على مجد هذه اللـيلة. سوف أكون خليقًا بأن أواجه العالم وأقول : «ميهول ماك تارف - ابنى - مات ميتة الأبطال فى سبيل الأرض التى أحبها».

سـايف : (تولول نادبةً بصوت عال) إننى فخورٌ بـه، إننى فخورٌ بابنى القوى الباسل. فليسعد الله مثواه هذه الليلة . . .

چـول : ميتة الأبطال، فى سبيل الأرض التى أحبها . .

(يتجمع أهل الجزيرة صامتين فى الشفَقَ الذاهب. تعود بريدچين)

بريدچين : (كأنما تخاطب نفسها) أخطأت تقديرَه. كانت فى سجاياه عَظَمة، طيلة الوقت ظننته رجلاً بسيطًا مغمورًا. وتحت ذلك كله كان لديه قلبُ داجـدا. ميهول، مـيهول، منذ هنيـهة كنت مُـوَثَقًا إلى مـكانٍ واحد بعـينه، إلى شكلٍ واحدٍ بعـينه. لكنك الآن فىْ كُلّ مكان، فى كلّ شىء. رغبتى إليك أنتَ وحـدك ياميـهول. سـوف أحيـا من أجلك، وسوف أنتظرك، وسوف نتـزوج عندما تعود - ترجّ الأرض بأقدام الجـبابرة. تلك هى الطريق التى سلكتهـا. الأرض مقدسة حيث كنت. هذا هو الخندق الذى عبرت. تثب وثبةَ الأبطال. وثبةَ سـمك السَلَمون إلى الأعالى. النجـوم أسطع ضوءًا فى السماء، ضـباب حبيـبنا يتكاثف فـوق التـلال هنا، فى هذا الحـقل. أواه ياللمـجـد. الحـقل. الحـقل ينبـثق بينبـوعٍ من أزهار الخشخاش. رذاذ متألق من الحمرة القانية. قد وفيت بعهدك. حقل ملىء بأزهار الخـشخاش. (فى تهلُّل) ميهـول ماك تارف، الحبُّ عصارةٌ دافئة، تتفجر لك من حبة قلبى.